في الأدب الغربي

عنزة المسيو سيغان

La Chevre de M. Seguin

لا لفونس دوديه

إلى الشاعر الملهم بيير غرينفوار — بباريس

ستظل طول حياتك على حالك التي عهدتها ياصديقي البائس!
كيف تعرض عليك وظيفة مخبر لاحدى كبريات الجرائد في باريس ثم ترفض! تأمل في حالك ايها المسكين! أنظر إلى ثوبك الممزق وإلى حذائك البالي، وإلى وجهك الضعيف الشاحب، أذلك ما أجداه عليك غرامك بالشعر. وهذا جزاء خدماتك الجلى «لأبولو» مدة عشر سنوات... ألا تخجل من نفسك بعد هذه النتيجة؟

إقبل هذه الوظيفة أيها الغبي! اعمل مخبرا! ستكسب الدنانير الجميلة فتستطيع بها أن تأكل في المطعم أكلا شهياً وأن تلبس في أول الشهر معطفاً جديداً...

ألا تريد أن تقبل؟ أترفضها إذن؟ تريد أن تبقى حراً إلى الأبد... اصغ إذاً إلى قصة عنزة المسيو سيغان لتعلم مايجنيه المرء من الاخلاد إلى حياة الحرية!

***

لم يلاق المسيو سيغان حظاً في اقتنائه المعز. فقد خسر أعنزه كلها بطريقة واحدة: كانت تقطع حبلها في الصباح لتهرب إلى الجبل حيث يفترسها الذئب. فلا وداعة سيغان ورفقه، ولا اسم الذئب وبطشه، كانت تثنيها عن خطتها. فكانت، على ما يظهر، معزى مستقلة بنفسها، لا ترضى بغير الهواء الطلق مربطا ولا بغير الحرية مرتعاً.

ولكن سيغان لم يكن يفهم طبعها ولا يعرف شيئاً من خلقها ليخفف قليلا من حدته وذعره. فكان يقول:

— انتهى الأمر! انني لن أقتني بعد اليوم عنزة واحدة لأنها تمل عشرتي.

ولكنه على رغم ذلك لم ييأس اليأس كله. فبعد ان خسر ست عنزات بالطريقة المعلومة اشترى السابعة. ولكنه في هذه المرة عنى باختيارها صغيرة ليأمن بقاءها عنده

آه! يا صديقي غرينفوار ما كان أجمل عنزة سيغان هذه المرة! عينان ناعستان ولحية صغيرة كلحية الضابط، وحافر أسود لماع، وقرنان مفوفان، وصوف طويل أبيض يتدلى على جسمها! إنها أحلى وألطف من جدي اسمير الد الذي رأيناه يطوف به الشوارع بالأمس، أتذكره ياصديقي؟ انها كانت هادئة، وديعة، سهلة الانقياد...

وكان سيغان يربط ماعزه في حظيرة محاطة بالعليق خلف منزله. فربط فيها العنزة الجديدة، وأطال لها الحبل لترعى ما جاورها من الاعشاب النضرة، وأخذ يطل عليها من وقت إلى آخر ليتعرف حالها. ولشد ما كان سروره عظيما عندما رآها سعيدة، منكبة على مرعاها الخصيب. تأكل منه مالذ لها وطاب. فقال سيغان في نفسه:

— الحمد لله! لقد وفقت أخيراً الى عنزة لاتمل عشرتي.

ولكن السيد سيغان كان مخطئاً، فان العنزة أدركها السأم والملال!

***

نظرت عنزة صاحبنا إلى الجبل ذات يوم، فقالت في نفسها:

— لا شك أن الحياة هنيئة حلوة في هذا الجبل ما أسعدني عندما أمرح بين أعشابه من غير هذا الحبل اللعين الذي يحز رقبتي!... لا بأس إذا رعى الحمير أو البقر في مثل هذا المكان الضيق!... أما نحن معشر المعزى فلنا الخلاء الفسيح.

ومنذ ذلك الحين أصبحت لا ترى لعشب الحظيرة طعماً. وأخذ الملل يستولي عليها. فهزلت، وشح حليبها، وأصبحت لا ترى طيلة النهار إلا ممددة على الأرض، شاخصة إلى الجبل وهي تثغي بصوتها المحزن

ولاحظ المسيو سيغان ان العنزة أصابها شيء، ولكنه لم

يعلم ماهو . . . فى ذات صباح بينما كان يحلبها التفتت اليه وخاطبته بلهجتها القومية :

— اصغ الى يامسيو سيغان ، انى أكاد أموت هنا ، فدعنى أذهب الى الجبل .

فصاح مسيو سيغان فزعاً :

— آه ! ربى ! . .

وترك الوعاء من يده ، ثم جلس الى جنبها على العشب وقال :

— عجباً ! وأنت أيضاً تريدين مفارقتى يابلانكيت ؟ فأجابته :

— نعم يامسيو سيغان .

— أتنقصك الأعشاب هنا ؟

— لايامسيو سيغان .

— ربما كان رباطك قصيراً ، أتريدين أن أطيله لك ؟

— لا ، أرح نفسك من هذا العناء يامسيو سيغان .

— اذاً مابك ، ماذا تريدين ؟

— أريد أن أذهب إلى الجبل يامسيو سيغان .

— ولكن ، ألا تعلمين أيها المسكينة ان الذئب هناك . . . وماذا تصنعين عند مايهاجمك ؟ . .

— أضربه بقرنى يامسيو سيغان .

— ولكن الذئب لايبالى بهما . فقد أكل لى معزى كان قرناها أطول من قرنيك . انك تعرفين رينود التى كانت عندى فى العام الماضى ؟ فقد كانت قوية نشيطة ؟ ظلت الليل على طوله فى عراك مستمر مع الذئب . . . وفى الصباح تغلب عليها وأكلها .

— مسكينة ! مسكينة ! . . . . ولكن لابأس ، دعنى اذهب الى الجبل يامسيو سيغان .

— سبحانك ربى ! . . . هذه أيضاً واحدة ستكون للذئب طعاماً . . . لا ، لا . . . سأمنعك رغماً عنك ! وسأقفل عليك باب الحظيرة حتى اذا قطعت الحبل لاتجدين لك مهرباً .

حينئذ قاد المسيو سيغان عنزته الى حجرة مظلمة فى الحظيرة وأغلق دونها الباب . ولكنه نسى أن يغلق النافذة ، فما كاد يخرج حتى وثبت العنزة اليها وفرت منها هاربة . . .

أتظنك تفهقه ياصديقى غرينفوار وترى رأى الماعز . . . ولكن ستعلم بعد حين اذا كان ضحكك يدوم طويلا .

ولما وصلت العنزة البيضاء الى الجبل ، اغتبطت بها وأكبر حسن طلعتها ، ذلك لأن أشباهه القديمة لم ترفيها مضى عنزة جميلة كهذه العنزة ، وانحنت الاغصان المورقة نحوها لتحظى بلمس ثوبها الفتان ، وتفتحت الازهار وارسلت فى الهواء كل ماتحمل من عبير وعطر احتفالا بملكة الجبل الجديدة .

تأمل ياصديقى غرينفوار ما كان أشد سرور بلانكيت ! لا حبل ، ولا وتد . . . ولا شىء يعوقها عن القفز والجرى ، والرعى كما تشتهى . . . هنا وجدت العشب كثيراً ناميا ! وفى هذا المكان أحست بطعمه ! . أى عشب لذيذ ، طرى ، مطرز الاطراف ، كثير الانواع . انها لم تجد مثيلا له فى الحظيرة الضيقة . والازهار الجميلة على اختلاف ألوانها ! انها أخاذة ساحرة .

هنا احست بالشبع ، فأخذت تلهو وتمرح ، تروح وتغدو ، تثب فى الهواء وتجرى على الارض ، تقفز من فوق السيول فتبلل صوفها بالماء ، ثم تتمدد على صخرة فى الشمس لتجففه ، حتى أعادت للجبل سالف حياته ، وبعثت فيه نشوة الفرح والحبور ! وكان يخيل للناظر ان فى الجبل عشر عنزات للمسيو سيغان لاعنزة واحدة .

وبيناهى على قمة الجبل ممسكة بين اسنانها زهرة جميلة أبصرت فى الوادى منزل المسيو سيغان والحظيرة التى بقربه ، فقهقهت ضاحكة وقالت :

— ما أصغر هذا المسكن ! كيف صبرت على بقائى فيه ؟ ورأت نفسها على قمة عالية فحسبت انها أصبحت تملك الكون بأسره . . .

والخلاصة ياصديقى ان يومها كان سعيدا جداً .

ومما هو جدير بالذكر ان بلانكيت التقت فى طريقها عند الظهر بقطيع من الوعل يقضم باسنانه أشجار الكرم . فأحبت أن تشاركه فى طعامه ففسحوا لها المجال بأدب . ويظهر أن هناك وعلا وقع من قلب العنزة موقعاً حسنا — وأرجو أن تبقى هذا الكلام سراً بينى وبينك — فاستأنفت وإياه فى الغاب مدة ساعة أوساعتين . فاذا أردت أن تقف على حقيقة ماجرى بينهما فاذهب وسل عيون الماء المتفجرة ، المنسابة بين الاعشاب المخضوضرة .

***

وفجأة برد الطقس ، وأخذ الليل يرخى سدوله على الجبل . فقالت العنزة :

— عجباً ! كيف يمضى النهار بسرعة ؟

وكان السهل قد اختفى عن ناظريها فى الظلام ، ولم تعد ترى من منزل المسيو سيغان إلا سقفه الاحمر وقليلا من الدخان المتصاعد منه . ولما اخذت تصغى الى صوت قطيع من الغنم

عائد الى حظيرته أحست فى أعماق نفسها بوخز الضمير فتألمت . ومر إذ ذاك طائر ليبيت فى وكره فكاد يلمسها بطرف جناحه . فى هذه اللحظة سمعت فى سفح الجبل صوتا يدعوها اليه — وكان ذلك صوت المسيو سيغان ينبعث من بوقه — فتذكرت الذئب وأخذت تفكر فيه بعد ان انساها فرح النهار وجوده .

ثم سمعت صوت الذئب يتجاوب صداه فى الارجاء، فوطدت العزم على النجاة من مخالبه باجابة المسيو سيغان . ولكنها تذكرت الحبل والوتد فشق عليها ان تعود الى سالف حياتها وفضلت البقاء .

وفى هذه الاثناء انقطع صوت البوق ...

وسمعت العنزة خلفها حفيف الاوراق ، فالتفتت لتنظر فرأت اذنين صغيرتين ترتفعان وعينين تقذفان بالشرر .. فعرفت انه الذئب ...

***

ربض الذئب الكبير ينظر الى العنزة نظرة نهم، ويتأملها دون ان يعجل الى افتراسها. ولما همت بالمضى فى سبيلها أخذ يضحك ويسخر ، ثم مد لسانه الأحمر الغليظ .

هنا احست بلانكيت بخطر الموت . . وتذكرت حكاية العنزة رينود التى قاومت الذئب طيلة الليل عبثاً ، فالقت عصا الطاعة وصممت على أن تتلقى الذئب صاغرة ليأكلها سريعاً .

ولكنها فى اللحظة الاخيرة رجعت عن رأيها هذا ، ووقفت للدفاع عن نفسها ، فاحنت رأسها وأشهرت قرنيها ، لا لتقتل الذئب وهي تعرف ان المعزى لاتقدر عليه بل لتجرب إذا كانت اقوى باساً من رفيقتها رينود . . .

آه ! ياصديقى ما كان اشجع هذه العنزة الصغيرة ! انها اضطرت الذئب اكثر من عشر مرات الى إن يستريح فترة من الزمن كانت فى خلالها تقضم العشب بسرعة لتعود إلى القتال مملوءة الفم ...

وظلت الحال على هذا المنوال ، الصراع مستمر يقطعه تقهقر وقتى من الذئب ، والعنزة تنظر الى النجوم الرجراجة وهى تأمل دوام القتال حتى مطلع الفجر — الى ان اخذت النجوم تهوى واحدة بعد الاخرى.. وامتد فى الافق الشرقى شعاع باهت..وارسل الديك صيحته من احدى المزارع المجاورة . فقالت العنزة المسكينة التى انتظرت الفجر لتستسلم للذئب :

— ها قد وصلت الى بغيتى أخيراً !

ثم تمددت على الارض وصوفها الابيض مخضب بدمها . . .

عند ذلك هجم الذئب عليها واكلها .

***

وداعا يا صديقى !

ان القصة التى رويتها لك واقعية لا أثر فيها للخيال . ويمكنك اذا جئت الى هذه الضاحية يوما أن تطلب من أحد اهليها أن يقص عليك حكاية عنزة المسيو سيغان التى قضت الليل بطيلته فى عراك مستمر مع الذئب . . . وفى الصباح تغلب عليها وافترسها .

أسامع أنت ياغرينغوار!

... وفى الصباح تغلب عليها وافترسها .

بيروت محمد كزما